علي زلماط
باحث دراسات إسلامية

الفكر الاستشراقي المغرض

إذا كان للمستشرقين جهود لا تنكر في خدمة البحث العلمي، والاهتمام بالعلوم الإسلامية، والعناية بالتراث الإسلامي، بالدراسة والتحقيق، وإذا كان لبعضهم فضل التنويه المنصف بقيم الإسلام والحضارة الإسلامية، ودورها الفعال في تطور أوروبا والعالم الغربي بشكل عام، فإن لبعضهم أخطاء وأغلاطا، لا تغتفر، وخروجا أحيانا كثيرة، وعن قصد، عن المنهج العلمي الموضوعي، الذي ينبغي على الباحث الالتزام به، دون الانحياز لإثبات وجهة نظر ما، أو لتهديم حقائق أخرى ثابتة، نتيجة الخضوع للتأثيرات الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

ونحن في هذا المقال نسعى من خلاله إلى التوقف عند بعض المستشرقين، ونظرتهم إلى العقيدة الإسلامية والقرآن الكريم، والدين الإسلامي على وجه العموم، بتقديم أدلتهم وحججهم، ثم النظر فيها من بعد ذلك، إن كانت تحاذي الصواب أو تتفاداه.

بدأ اهتمام المستشرقين الغربيين بالقرآن الكريم، بحثا ودراسة، منذ الاحتكاك المباشر بالمسلمين، إبان الحروب الصليبية، التي دامت حوالي قرنين من الزمن، ولما رأوا فيه من القوة العجيبة في التأثير على المسلمين في جميع المجالات، فكان اهتمامهم من هذا المنطلق، بحثا عن سر هذا التأثير، من جهة، ومن جهة أخرى، البحث عن السبل والمنافذ للحيلولة دون حدوث هذا

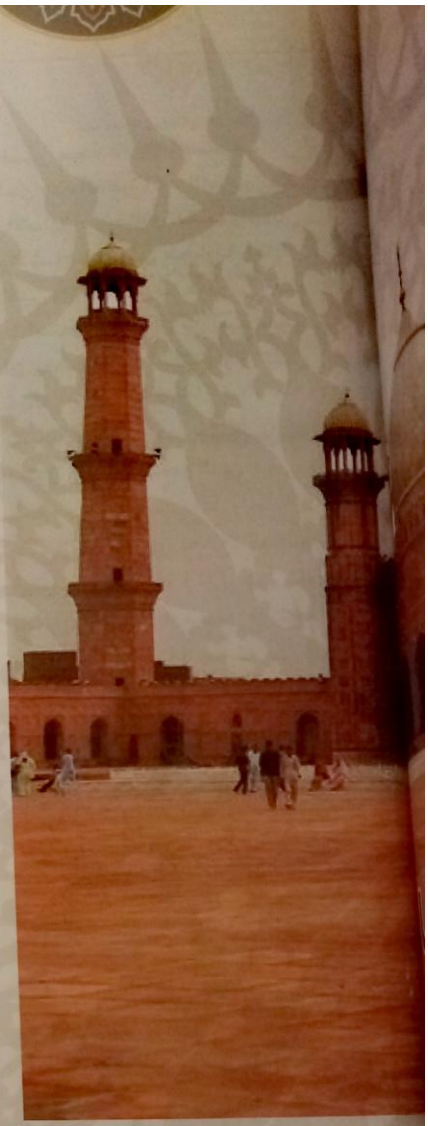

التأثير مرة أخرى، فكان أول ما قاموا به لما عادوا إلى بلادهم، بعد أن طردوا من قبل المسلمين، بزعامة صلاح الدين الأيوبي، هو تشييد جامعات ومعاهد، خصيصا لدراسة القرآن الكريم، وكل ما يتعلق به من مختلف العلوم، فتمكنوا بذلك من تكوين باحثين متخصصين في الدراسات الإسلامية، والثقافة الشرقية العربية الإسلامية، أمثال: بروكلمان، جورسيل، شاخت، جولدزيهر... الذين أبلوا بلاء حسنا، في تحقيق كثير من المخطوطات النادرة، والتي عسر على المسلمين الوصول إليها، وكذلك تأليف كثير من الموسوعات، في شتى مجالات الإسلاميات، قل نظيرها عند المسلمين.

لكن ورغم هذه الجهود، وهذه العناية بالقرآن الكريم، فإنها لا تتسم إلى حد ما بالموضوعية العلمية الشاملة، كما ينبغي أن تكون، فكانت النتائج المحصل عليها تخالف ما هو عليه اعتقاد المسلمين.

وهذا الأمر لم يأت هكذا جزافا، وإنما كان تحت تأثير عدة دوافع، يغلب عليها الدوافع الدينية المبغضة للإسلام كدين شامل للحياة، والدوافع الاستعمارية، الطامعة في ثروات البلاد الإسلامية.

فكان من هذه الدراسات ما يزعم أن القرآن الكريم من التجربة البشرية، وأنه انتحال من كتب اليهود والمسيحيين، لا وحي سماوي من عند الله، فكيف ذلك؟

ذهب مجموعة من المستشرقين إلى القول بأن القرآن الكريم الذي يتعبد به المسلمون من تأليف محمد، مصدرا وأسلوبا، وقد أصبحت هذه المقولة مشهورة بين المستشرقين لدرجة أن جورسيل قال: «بأن هذا الأمر حقيقي لا يقبل الجدل» (١)، وعلى ذلك يكون محمد عليه الصلاة والسلام اعتمد في تأليفه للقرآن الكريم على المعلومات التي استقاها من تجاربه الشخصية مستعينا بذلك بالثقافة العربية الوثنية، وبما عليه أتباع الديانة الحنيفية، بالإضافة إلى مستواه اللغوي الذي وظفه في الربط بين هذه المعلومات ربطا أدبيا، يضفي عليه الجمالية البلاغية بصبغة عربية أصيلة، ونفس الشيء الذي يؤكده المستشرق جون سي بلر حيث قال: «وبالفعل لا يمكننا التقليل من تأثير الحنيفية على محمد خلال زمن نشأة الإسلام» (٢)، بدليل أوجه التشابه الواقع بين الديانة الحنيفية وما جاء به الإسلام من التوحيد ورفض الشرك والدعوة إلى التحلي بالأخلاق الحميدة وغير ذلك من الفضائل.

والمتأمل في دراسات هؤلاء، يجد أنهم قد استخدموا مناهج علم الاجتماع، التي تربط نشأة المعتقدات الدينية بالبنيات والمجتمعات، فـ «جون أمبتي» واحد من هؤلاء الذي قال: «إن المعتقدات القبلية الوثنية في إفريقيا قد نشأت بسبب ارتباط عوامل بيئية واجتماعية» (٣).

ويقول «مونتجمري واط»: «إن ذكر الحوادث التاريخية ليس بعيدا عن الاهتمام العقدي، فإن مؤيدي علم الاجتماع المعرفي يرون أن كل المظاهر العقدية والفلسفية ذات مرجع سياسي أو اجتماعي» (٤).

أي بمعنى أن الدين الإسلامي الذي جاء به النبي محمد ﷺ هو نتيجة إفرازات الحياة الثقافية والاجتماعية والدينية والسياسية العربية، الوثنية منها والحنيفية، ليس إلا.

هذا وقد ذهب كذلك فريق من المستشرقين إلى القول بأن القرآن الذي أتى به محمد ﷺ ما هو إلا تأليف ملفق بالتعاليم اليهودية والمسيحية، استقاها من كتب اليهود والمسيحيين، والتوراة والأناجيل.

والملاحظ في هذا الادعاء، أن المستشرقين اليهود، أمثال «جولدزيهر» و«شاخت» هم أشد حرصا على ادعاء استمداد الإسلام من اليهودية (٥). حيث يقول «فيليب إيرلنجي»: «لقد كان محمد في المدينة تلميذا لليهود، وهم الذين كونوه ثم بدأ جبريل يمده ببعض الأساطير التي يعرفها اليهود والمسيحيون» (٦).

أما المستشرقون المسيحيون فهم يجرون وراء المستشرقين اليهود في هذه الدعوى، ذلك أن الديانة المسيحية ليس فيها تشريع، يستطيعون أن يزعموا تأثر الإسلام به، وإنما فيها مبادئ أخلاقية، زعموا أنها أثرت في الإسلام، ودخلت عليه منها (٧).

توحيد الله وصفاته

فكما اعتبر المستشرقون أن القرآن الكريم من تأليف محمد، فإن عقيدة التوحيد التي جاء بها الإسلام، هي بدورها (بزعمهم) لها جذور في الديانتين اليهودية والمسيحية، بالإضافة إلى الوثنيات العربية، التي لها تأثير واضح في العقيدة، لما اعترف القرآن بآلهة العرب الثلاثة: اللات والعزى ومناة الثالثة.

يقول «بروكلمان»: «إنه ما يظهر - أي للكاتب - أن محمدا اعترف في السنوات الأولى من بعثته بآلهة الكعبة الثلاثة، اللواتي كان مواطنوه يعتبرونها بنات الله وقد أشار إليها في إحدى الآيات الموحاة إليه بقوله: «تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى» (٨).

ويذهب المستشرق «فنسنك» إلى القول: إن محمدا استمد مفهوم الإله من المسيحية، وذلك أن مفهوم الإله عند المسلمين يلتقي في نقاط عديدة مع وصف «يوحنا الدمشقي» وشرحه للذات الإلهية (٩).

ومن جهة أخرى يذهب «ماكدونالد» إلى القول: إن الله الذي يدعوه محمد كان معروفا عند العرب، حيث يقول: «مما لاشك فيه أن العرب قبل محمد قالوا بوجود إله على نحو ما سموه «الله»، وكانوا يعترفون بالله ويقسمون به جهد أيمانهم وليس من السهل دائما أن نميز بين آرائهم وبين تفسير محمد لهذا الرأي... وقد اعتبروا بعض الملائكة بنات الله» (١٠).

أما فيما يتعلق بالأسماء والصفات فقد نهجوا نفس المنهج، وادعوا «أن لوازم السجع حملا محمدا على وصف الله بعدة صفات يتردد ذكرها في القرآن، وهي تعبر عن حقيقة إله محمد لكنها عبارات مبعثرة ومتناقضة، أما أسماء الله فتبدو لأول وهلة خليطا غريبا من الألفاظ الدالة على التجسيم والعبارات الميتافيزيقية» (١١).

ويذهب «ماكدونالد» في حديثه عن أسماء الله الحسنى، وخاصة اسم «السلام»، زاعما أن معناه غامضا إلى حد كبير ومؤكد، وفي نفس الوقت لا يعني Peace... ويضيف قائلا: «إن الرسول ربما التقط هذه الكلمة من إحدى صلوات المسيحيين وظلت عالقة بذهنه» (١٢)، ويزعم كذلك أن اسم الباري قد أخذه الرسول من العبرية دون أن يبين به معنى مخصوصا (١٣).

الرد على الشبهات

يرد على هذه الشبهات التي أثارها المستشرقون للحط من الإسلام بما يلي:

أولا: أن النبي محمد ﷺ لما جاء بهذا الدين الجديد وقف مشركو العرب في وجهه، صدا منيعا لنشر دعوته، بدعوى أنها تخالف ما كان عليه آباؤهم، ولو كان ما يدعيه المستشرقون بأن محمدا ﷺ قد اعتمد على الثقافة العربية الوثنية والحنيفية في تأليفه للقرآن الكريم ما وقفوا في وجهه، وما رفضوا هذا الدين، ولكانوا أول المؤمنين به، ولو كان صحيحا ما يدعون، ما عذب النبي محمد ﷺ وأصحابه من أجل هذه الدعوة أشد العذاب، بدءًا بالاستهزاء واختلاق الكذب والبهتان والإشاعات إلى محاولة اغتيال النبي ﷺ، من طرف عمير بن وهب لما استأجره صفوان بن أمية مقابل أن يقضي عليه الدين وأن يكفل عياله.

ثانيا: أن الدين الذي جاء النبي ﷺ احتوى على كل عناصر الدين الجديد: التوحيد والعبادات والمعاملات والأخلاق والتشريع، بخلاف الديانتين اليهودية والمسيحية (١٤). فلا تكاد تجد أوجه الشبه بينهما فاليهودية والمسيحية أصابهما التحريف على مر الزمان والعصور، عكس القرآن الكريم فقد بقي بأصله دون تغيير أو تحريف، بالإضافة إلى كون الديانة اليهودية تقر الوساطة بين العبد وربه، ونفس الشيء مع المسيحية، ويتجلى ذلك في كون الأولى، أي اليهودية، يلعب فيها الهيكل هذا الدور، فهو الذي يقبل القربان من العباد، فلا يقبل قربان بغير وساطة الكهان والأحبار، أما الإسلام فلا شيء فيه من هذا القبيل، وبالنسبة للديانة المسيحية، فالكنيسة هي الوسيطة والرقيبة على أفعال العباد، من خلال تقديم صكوك الغفران، وتسليم الأماكن في الجنة، بقدر الثمن المدفوع، إضافة إلى كونها ديانة تحتوي عقائد وثنية، كعقيدة مثرا إله الشمس، عقيدة الرومان قبل المسيحية...

فالقرآن الكريم لم يكن يوما ما موافقا لتقاليد المسيحية، وإذا كان قد أخذ منها كما يزعمون فكيف يعلن الحرب عليها؟

حيث يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا

مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (المائدة:٧٣).

وفي هذا الصدد يقول «فيليب حتي»: «إن جاز التشبيه بالأصول والفروع فيمكننا أن نقول أن الإسلام شجرة تحمل الثمرات الخيرة من الأديان السابقة بعد التهذيب والتجويد، وإن ثمرات الشجرات الإسلامية لا تحملها تلك الشجرات، فليست اليهودية جذر العقيدة الإسلامية لأنها تفرعت عما سبقها ولم تكن جذرا لما تلاها» (١٥).

ثالثا: أما قصة الغرانيق التي يستند إليها بروكلمان في ادعائه بأن الإسلام قد اعترف في بداية أمره بآلهة العرب، فإنها غير صحيحة عند علماء المسلمين من عدة أوجه منها: أن هذه الرواية متروكة عند أهل الحديث، حيث في سندها المروي عن ابن عباس (رضي الله عنهما) متروك وهو «الكلبي». أما من جهة اللغة فقد قام الشيخ محمد عبده بتحليل قصة الغرانيق فوجد أن العرب لم يصفوا قطعا آلهتهم بالغرانيق، فلم يأت لهم في نظم ولا خطب ولم يكن ذلك جاريا على ألسنتهم، ولم يستعمل الغرنوق والغرنيق إلا لاستعماله الحقيقي بكونه طائرا مائيا أسود وأبيض واسمه مالك الحزين، واستعمل لغة بشكل مجازي للشاب الأبيض الجميل (١٦). بالإضافة إلى أنها تخالف ما يدعو إليه القرآن الكريم من التوحيد المطلق، وسورة الكافرون دليل واضح للعيان، فلا يمكن للرسول ﷺ أن يستحسن ما عليه المشركون، وإلا خالف ما يدعو إليه.

رابعا: أما ما قاله «ماكدونالد» في حق أسماء الله تعالى فهو زعم لا رأس له ولا ذنب، إذ كيف يأخذ الرسول ﷺ شيئا من العبرية ولا يعرف معناها البتة؟ ولم يثبت أن تكلم بها، بل كيف يأخذ شيئا هو موجود أصلا في اللسان العربي؟ فالباري هو اسم فاعل من فعل برأ أي خلق، وهذا معروف لم نكن نظن أن أحدا سيجعله محل شك ومراء، ولكنهم للحقد يعملون (١٧).

ولبيان هذا الحقد يقول «بودلي» في كتابه «سيرة الرسول» ﷺ: هذا الافتراء معتمد على وجود ترجمة للإنجيل بالعربية قبل ظهور الرسول، وذكر أن الترجمة للعهدين القديم والجديد ظهرت بعد عهد النبي ببضعة قرون، فكيف يقال أنه اطلع عليه أو أخذ منه؟... هذا ويخالف عقيدة التثليث في المسيحية، بتوحيد مطلق فأين هذا الاقتباس إذن (١٨)؟

هذا وبالتأكيد لم يثبت لدى مؤرخي العرب أن النبي ﷺ قد تعلم أو قرأ على يد شيخ أو معلم، فما بالك بالعبرية، فقد جاء بالقرآن الكريم من عند الله عن طريق الوحي، ليعلمهم ما لم يكونوا يعلمونه، ويخرجهم من ظلمات اللات والعزى ومناة الثالثة إلى نور الواحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد.

وفي الختام نقول: إن الالتزام بالمنهج العلمي الموضوعي في دراسة دين معين، يحتم على الباحث الحديث عن حقيقة ذلك الدين من خلال فهم أصحابها لها، ثم بعد ذلك له كامل الحرية في موافقتها أو مخالفتها، وهذا ما لم يلتزم به هؤلاء المستشرقون في دراساتهم للدين الإسلامي، فمنهم من استسلم للرغبات الدينية التي ترعاها الكنيسة لأهدافها التبشيرية، وهناك من يعمل لصالح السياسة والاقتصاد، لأهداف استعمارية كولونيالية.

وعليه فإن الباحث النزيه، الذي يلتزم بالموضوعية العلمية عندما يتعرض للحديث عن الإسلام، سيستنتج حتما أن العقيدة الإسلامية التي تقوم على أساس الإيمان بالله ورسوله محمد ﷺ، هي سر قوة المسلمين عبر التاريخ، وأن القرآن الكريم هو الضامن لاستمرار الدين الإسلامي.

الهوامش

١- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، محمد حمدي زقزوق، دار المعارف، القاهرة مصر، د ط، دت، ص ٨٧.

٢- مصادر الإسلام، جون سي. بلر، ص ٢٨ كتاب على الرابط: www.muhammadanism.org

٣- دراسات استشراقية، ص ١٣٠، نقلا عن: من افتراءات المستشرقين على الأصول العقدية في الإسلام، عبدالمنعم فؤاد، مكتبة العبيكان الرياض، ط١، ٢٠٠١م، ص ٤٥.

٤- مرجع سابق، ص ٤٥.

٥- المستشرقون والسنة النبوية، سعد المرصفي، مكتبة المزار الإسلامية الكويت، مؤسسة الريان، بيروت- لبنان، د.ط، تاريخ كتابة المقدمة ١٤/٠٩/١٩٩٠م، ص ١٨.

٦- مجلة hitorila Avrill ١٩٦٩م نقلا عن: من قضايا الاستشراق بحوث ودراسات، يحيى مراد، ص ٢٥٣.

٧- المستشرقون والسنة النبوية، سعد المرصفي، ص ١٨.

٨- من افتراءات المستشرقين على الأصول العقدية في الإسلام، عبدالمنعم فؤاد، ص ٥٥.

٩- مرجع سابق، ص ٥٦.

١٠- دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة محمد الفندي، ج٢، ص ٥٥٨، نقلا عن: من افتراءات المستشرقين على الأصول العقدية في الإسلام، عبدالمنعم فؤاد، ص ٥٦.

١١- دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة محمد الفندي، ج٢، ص ٥٦١، نقلا عن: من افتراءات المستشرقين على الأصول العقدية في الإسلام، ص ٥٦.

١٢- دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية أضاليل وأباطيل، إبراهيم عوض، توزيع: مكتبة البلد الأمين (درب الأتراك خلف الجامع الأزهر)، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص ٨٥.

١٣- مرجع سابق، ص ٨٩.

١٤- المستشرقون والقرآن، محمد أمين حسن بني عامر، دار الأمل للنشر والتوزيع، إربد الأردن، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م، ص ١٥٢.

١٥- موضوعية فيليب حتى في كتابة تاريخ العرب المطول، شوقي أبوخليل، ط١، ١٩٨٥م، دار الفكر، دمشق، ص ١٤٠.

١٦- مشكلات القرآن، محمد عبده، ص ٨٠-٨١، نقلا: عن المستشرقون والقرآن، محمد أمين حسن بني عامر، ص ٤٤٤.

١٧- دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية أضاليل وأباطيل، إبراهيم عوض، ص ٨٩.

١٨- موضوعية فيليب حتي في كتابة تاريخ العرب مطول، شوقي أبوخليل، ص ١٤١.